إلى رجال التعليم :

التلميذ مرآة أستاذه

للأستاذ على المهارى

ذكرت فى عدد سابق من الرسالة الغراء بعض الأسباب التى أدت إلى ضعف التعليم فى العلوم عامة ، وفى اللغة العربية خاصة ، وما سلكت غير سبيل الحق ، ولا نهجت إلا منهج الصراحة فإنى أعلم أن المداورة والمجاملة وغض الطرف عن العيوب كلها أدواء فتاكة ، تغطى وجه الحق ، وتمكن للداء أن يستشرى ، وإذا كان هذا سبيلى فإنى قائل اليوم قولا أراه مراً جارحاً ، ولكنى لا أجد منه بداً ، وإنى أعلم أنه سيغضب الكثيرين ، وسيدع غير قليل من رجال التعليم يزمون شفاههم ، ويقطبون أسارير وجوههم ، ويهزون أكتافهم ، ويقولون : كذب ورب الكعبة ، ولكنه — أيها الإخوان — الحق الصراح ، والحق مر ، والقول الخالص ، والناس لا يظأون إلا إلى الآسن المكر ، حين يعذبه النفاق ، ويسيغه فى الحلوق الثناء الكاذب ، والمداهنة البغيضة .

ولست متجنياً ، ولا بعيداً عن الصواب حين أقرر أن من أهم أسباب الضعف فى مدارسنا ومعاهدنا اسناد مهنة التعليم إلى قوم لا يحبون العلم ، ولا يسعون إليه ، ومن خطأ الرأى أن يظن أنى أقصد جميع الأساتذة والمدرسين ، فأنا إنما أشير إلى عدد غير قليل منهم ، وما دام المدرس ضحلا فى مادته ، تافهاً فى معلوماته ، ناقصاً فى عقلة ورأيه ، فكيف نطلب من التلميذ أن يكون نابغة فى علم ، أو عبقرياً فى فن ، بل كيف نطلب منه أن يقرأ قراءة صحيحة وأستاذه غير مستطيع ، وفاقد الشىء لا يعطيه كما يقولون ..

كان المعلمون فى الماضى يسهرون الليالى الطوال فى اعداد دروسهم ، ويرجعون إلى شتى المصادر فى مادتهم ، ويعملون آراءهم وعقولهم فى تفهم ما يلقونه إلى الطلاب ، فكان فى معاهد التعليم المجد المحصل ، والذكى النابغة ، ولكننا اليوم نرى مدرسين (على أحدث طراز) لا يعنى أحدهم بدرس ، ولا يتعب نفسه فى المراجعة ، وحسبه أن يدخل على تلاميذه فيلقى إليهم ما سطر فى الكتاب المقرر ، فإذا سئل أعاد (الأسطوانة) ، ونرى آخرين لا يحسنون النطق بالعربية ، وإنما أخذوها من أفواه العامة فهى تطغى على ألسنتهم ، وتشيع فى أساليبهم ، ولأن تكلف أحدهم أن يزحزح رضوى عن موضعه أهون عليه من أن تكلفه أن يلقى درساً بالعربية ، ولو كان يدرس البلاغة أو آداب اللغة العربية ، وليست هذه الحال مقصورة على معهد من معاهد التعليم دون معهد ، وإنما تجدها فى الجامعة المصرية ، كما تجدها فى الأزهر الشريف ، كما تجدها فى المدارس على مختلف أنواعها ، ونوادر المدرسين فى هذا الضعف يخطئها العد ويعوزه بها الحصر .

دخل أحد المفتشين على أستاذ يدرس آداب اللغة العربية فى فرقة عالية فوجده يدرس لهم الخط العربى ، ويقول عن بعض أنواعه (وقطته أربع وعشرون شعرة من شعرات البرذون) فسأله المفتش ما معنى هذا ، فأعاد الدرس من أوله ، وكرر سريعاً على هذه الكلمة ، فسئل مرة أخرى فصنع صنيعه الأول ، ولم يزد ، فقال له المفتش فى أى كتاب راجعت مادتك ؟ فسكت ولم يحر جواباً ، فقال له : فإذا أردت أنا أن أراجعها فى أى كتاب ؟ فسكت أيضاً . ؟

وحدثنى كبير فى الأزهر قال أن بعض المفتشين فى وزارة المعارف دخل على معلمة تدرس اللغة العربية فسمعها تقرأ قول الله تعالى « إنا أعطيناك الكوثر » فتضم الكاف ، وتميت الواو.

وقد سئل أحد المدرسين فى الأقسام الثانوية بالأزهر عن إعراب هذه الكلمة : لى مسألة لدى على ، فلما وصل إلى حرف لدى قال أنه فعل ماض ، وأصر على ذلك .

ولعل أغرب ما سمعنا فى هذا الباب أن مدرساً فى كلية عالية قال إن قول الله تعالى (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل) نزل على أبى بكر رضى الله عنه ، فراجعه الطلاب فتريث قليلا ، وترك جدالهم ، فلما جاء فى اليوم التالى قال لهم اسمعوا . إن الرجوع إلى الحق فضيلة ، وإنى أطلت الليلة النظر ، وراجعت كثيراً من الكتب ، وبعد البحث والتنقيب ظهر لى أن هذه الآية نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم !!!

صدقنى — أيها القارىء — واعلم أنى — والله الذى لا إله

غيره — أجد ولا أتندر ، وأن كثيرين ممن كانوا فى هذه الفرقة لا يزالون فى أول عهدهم بالحياة ، وأن الأستاذ المدرس لا يزال منتفخ الأوداج ، عالى الهامة ، يغدو ويروح على كليته ، ويأخذ الكثير من المال على جهله وغباوته !!

وقل لى بربك ، كيف يخرج الأستاذ نابغة فى البلاغة وهو لا يكاد يبين ؟ وكيف يصنع تلميذاً يفخر به وهو يجهل البديهات الأولية فى العلم ؟ ومتى استطاع مدرس يقرر أن قصص القرآن من الأساطير ، أن يخرج تلميذاً له فى العلم نصيب .. ؟

هذا عن جهل المدرس ، فإذا أخذنا ندون ما نعرف من إهمال بعض المدرسين وتهاونهم طال بنا القول ، واستفاض الحديث ، على أننا سنجتزىء بقليل من كثير مما نعرف ، ومع ذلك فاسمنا نسلم من الألسنة

هذا مدرس لا عمل له طوال العام الدراسى ألا أن يتحدث عن نفسه ، فلا يلق فرقة من الفرق ألا أسرف معها فى التمدح بأخلاقه ، والفخر بآثاره وأعماله ، والحديث عن آبائه وأجداده حتى إذا بقى من الزمن خمس دقائق قال اسمعوا سنقول فى العلم ، ويمضى يتحدث عن العلم ولكنه لا يفتح باب العلم إلا ليدخل منه إلى الحديث عن نفسه ..

وهذا آخر تثقل عليه الدراسة ، حتى أن كل يوم منها عنده مثل « سبت الكتاب » فهو يحاول جاهداً أن يميل بالطلاب عن طريق الجد ، فلا يسمع نبأة إلا حدث بها ، وتحدث عنها ، وأطال الحديث ، وهو يوحى بذلك إلى الطلاب أن دعوا العلم والعلماء فإن الوطن يناديكم ، ومطالب الحياة تستصرخكم ، وما فائدة الدرس إذا لم ينتفع منه الدارس ؟ فإن لم يقل ذلك تصريحاً قاله تلميحاً ، ولا عجب بعد ذلك إذا رأينا بعض الأساتذة يفرحون ويطربون حين يرون الطلاب منصرفين عن دروسهم ، وينتعمون أشد النعم إذا رأوهم مقبلين على هذه الدروس .

وهكذا نجد ضروباً وأصنافاً وكلها تتلاقى عند نقطة واحدة ، تتلاقى عند الاهمال الذى لا يليق بمن يأخذ على نفسه تبعة تربية النشء ، ولسنا هنا نتحدث عما تبذره مثل هذه الأعمال فى نفوس الناشئين من الأخلاق الذميمة ، وإن كان ذلك عظيما ، ولكنا بصدد الحديث عن ضعف المتعلمين الذى كان من أكبر أسبابه ضعف بعض المعلمين ، واهمالهم وتهاونهم .

ولكن العجب كل العجب من الرؤساء الذين يعرفون كل ذلك ، وما هو أدهى وأمر من ذلك ، ولكنهم حين يملكون الغنيمة لا يوزعونها بالقسطاس المستقيم ، ولا يقصدون بها الجادين العاملين ، وإنما يقصدون القريبين منهم والملتفين حولهم ، وجمهرة هؤلاء من الصف الأخير الذين يريدون أن يكونوا فى الصف الأول بتقربهم من الرؤساء ، والسير فى ركابهم ، ولذلك يكسل المجد ، ويتهاون العامل ، ويسكن المتحرك ، وتخور عزيمة السباق ، ولقد قر فى الأذهان — من طول ما لاقى المجدون — أن الحظ لا يراقى النابه المخلص ، وقديماً ، قال المتنبى :

وما الجمع بين الماء والنار فى يدى بأيسر من أجمع الحظ والفهما

وقال بعض شعرائنا المحدثين ، وقد أخطأه الحظ ، فى توزيع الدرجات الأخيرة ، :

أين الكفاءة لا كفا ءة غير ما يملى الهوى
والعلم والإخلاص والتبريز دون المستوى
من رام ريّا عندهم فالجهل أعذب مرتوى
وإذا المحكم فى مها وى الرأى والظلم هوى
فشهادة الحرمان أعدل يوم تختبر القوى

ولا سبيل إلى النهوض باللغة العربية ، وبالتعليم على وجه العموم إلا إذا أخلص ولاة الأمور ، وتنبهوا لما قدمنا لهم فى مقالنا السابق ، وفى هذا المقال من علل وأدواء ، وعملوا — جاهدين مخلصين — على علاجها والقضاء عليها .

على العمارى
المدرس بالأزهر

اطلب نسختك
من الطبعة الجديدة من كتاب
تاريخ الأدب العربى
يطلب فى فلسطين من مكتبة الطاهر إخوان بيافا